التخييل العلمى والأسطورة

أ. د. سليمان العطار
كلية الآداب – جامعة القاهرة

(١)

فى منتصف القرن التاسع عشر يظهر نوع أدبى جديد , حمل اسم "رواية الخيال العلمىscientific fiction " , وطبعا – كما نعرف جميعا سوف يرتبط هذا النوع الأدبى الجديد باسم الكاتب الفرنسى "فيرن" . وخصائص هذا النوع خصائص تعليمية فى معظمها إذ توجه للشباب حول سن العشرين , وهو ينطلق من المعلومات والنتائج المستقرة التى توصل إليها البحث العلمى . ويستخدم الخيال القصصى فى تعريف الشباب بتلك المعلومات والنتائج العلمية , فى ابتداع لمركبة للفضاء يستخدم ما استقر من علم فى تصميمها , وتوفير الظروف الملائمة لحياة رواد الفضاء بداخلها .

ويتطور هذا النوع الأدبى على مدى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والعقدين الأوليين للقرن العشرين , دون أن يتخلى جملة عن أهدافه التعليمية , وإن تحولت إلى أهداف تثقيفية لمحاولة نشر الروح العلمية بين الشباب مع التخلى النسبى عن أهداف فيرن المباشرة فى تعليم المواد العلمية بشكل مباشر . ويظهر بالتدريج أبعاد اجتماعية وتنبؤية بالمستقبل , إلى أن يختفى الهدف التعليمى نهائيا , ويصبح هذا النوع الأدبى ذا أهداف جمالية محضة , ويمتزج بالفانتازيا , ويخلق الأسطورة فى انطلاق مبدئى من العلم, ثم يتجاوز ذلك إلى الدخول فى الخيال المحض خالقا عوالم خيالية لاتقوم على أى أساس علمى ماعدا بعض المداخل العلمية المبدئية , ثم تقوم على الجموح فى الخيال , وتظهر أبعاد متعددة روائية يشترك بها هذا النوع مع باقى الأعمال الروائية العادية.

وهنا نتيجة هذا التحول الكبير يحمل النوع اسما جديدا , وكأن رواية الخيال العلمى قد تجاوزها الزمن لتصير نوعا مستجدا هو"التخييل العلمى science fiction" .

وفى العقد الرابع من القرن العشرين يزدهر هذا النوع الأدبى فى الولايات المتحدة الأمريكية , ويظهر عدد كبير من المجلات التى تنشر قصص التخييل العلمى ويزداد عدد القراء , وندخل فى مرحلة أطلق عليها العصر الذهبى للتخييل العلمى . أخيرا تنتقل الموجة إلى أوربا , والآن يتنبأ البعض أن التخييل العلمى سوف يسيطر على الرواية القادمة بشكل غير مباشر لتدخل العلم والتكنولوجيا فى كل شئون حياتنا بشكل متزايد مع تسارع ايقاع التقدم العلمى , لأن الرواية فى النهاية تحكى الحياة .

وما يعنينا هنا أن العلم لم يبتعد يوما عن القص , ولاسيما القص الأسطورى, حيث أن التعريف المبسط للأسطورة هو : "الأسطورة هى علم الإنسان القديم وعقيدته الدينية" . وبهذا نتصور أن الأسطورة تحمل فى طياتها جذور روايات الخيال العلمى والتخييل العلمى معا , ولاسيما أن التخييل العلمى هو الآن مصنع لخلق الأساطير الحديثة التى استبدلت بالدين الفانتازيا , وبالعلم النبوءة العلمية التى وإن استندت إلى بعض الأسس العلمية , إلا أنها تخلت فى باقى نسيجها عن العلم لصالح عوالم تخييلية بسبب عدم الحاجة للنبوءة العلمية لأن التقدم العلمى يسبقها الآن.

(٢)

ارتبط العلم بالأدب , لكن دون قصد واضح , وذلك منذ أن عرف الإنسان الأدب , بسبب أن الحياة هى موضوع الأدب والعلم جزء لايتجزأ من الحياة , ولكن ظل العلم لفترة طويلة مرتبطا بالسحر والدين , ارتباطا عضويا , ولم يضعف هذا الارتباط فى التاريخ الإنسانى إلا مع النهضة الأوربية فى القرن السادس عشر , وإن ظل هذا الارتباط قويا فى الشرق إلى اليوم , ونقصد هنا ارتباط العلم بالدين ارتباطا تأثر قليلا أو كثيرا بالموقف الأوربى , دون أن ينفصم ذلك الارتباط, والدليل على ذلك الدراسات التى لاتتوقف عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم , كذلك الحاجة المستمرة لفتوى العلماء حول قبول بعض المنجزات العلمية , فمثلا بعد نجاح عمليات زرع الأعضاء انتظر الأطباء والمشرعون فى بلادنا فتوى علماء الدين حول مشروعية إجرائها ورأى الدين حولها , ومثلها عمليات التجميل. وهذا أمر بالغ الخطورة يفسر لماذا لم يفكر أطباؤنا فى ابتكار تلك العمليات , بمعنى أن المبادرة

العلمية قد تصادر فقهيا , مما يقلل من احتمال وقوعها حتى فى مجال العلوم الإنسانية , وهكذا يصير الموقف الإفتائى الفقهى رد فعل لمكتشف علمى عند الآخرمن ناحية , وعائقا محتملا ضد المغامرة العلمية عندنا , والاكتشاف والابتكار فى العلم يقوم أساسا غلى المغامرة والحرية . ولاننسى أن العلوم العربية التى بهرت العالم دارت كلها حول خدمة الدين , أى أنها بدأت بضوء أخضر من جانب الفقهاء مع خط أحمر يبعد هؤلاء العلماء عن العلم المحض , وعندما تجاوز بعض علماء الأندلس هذا الخط اتهموا فى دينهم وأخذ علمهم مأخذ الشعوذة مثلما حدث لعباس بن فرناس , الذى توصل للطاقة المحركة للأشياء , فاتهم باستخدام الجن والشياطين فى تحريكها , ومن الضرورى فى هذا السياق إيراد هذه الوثيقة الهامة للموقف من العلماء الذين تجاوزوا الخط الأحمر للفقهاء , وقد تشرَّب العامة هذه الأفكار بشكل حاد حتى بدايات القرن العشرين , والدليل على ذلك الموقف من الترام عند دخوله القاهرة آخر القرن التاسع عشر حيث كانت العامة تجرى خلفه وترجمه بالحجارة, ظنا أن الشيطان يحركه . بالطبع تحسنت الأحوال نسبيا , لكن ما زال جوهر هذا الموقف مسيطرا على الثقافة حتى يومنا هذا .

وكما ارتبط العلم بالأسطورة والدين , ارتبطت الأساطير الأولى بالعلم,ففى أسطورة ايزيس وأوزوريس , تماما كما فى أسطورة توت (الذى سماه الإغريق هرمس الأكبر) يقوم بطل كلٍّ من الأسطورتين بتعليم المصريين أصول الزراعة والصناعة والحكمة .

وفى العصر الحديث تم الزواج الرسمى بين الأدب والعلم فيما عرف لفترة باسم رواية الخيال العلمى scientific fiction, وصار يحمل اسم رواية تخييل العلم science-fiction , وقد ظهر هذا الاسم الأخير عام ١٩٢٦ على يد هوجو جيمسباك مؤسس مجلة متخصصة فى هذا النوع الأدبى سماها "أميذنق Amazing" , وقد تخصصت هذه المجلة التى لاقت شعبية كبيرة فى نشر أعمال ليست كثيرة الجدية , وليست أدبية بالمعنى الشائع للأدب , ولكنها اعتمدت على التهويل الأدبى فى توظيف للعلم للدخول فى علم من التهويل والمبالغات الخيالية . وجدير بالذكر أن مصطلح تخييل العلم قد استعمله ويليام ويلسون عام ١٨٥١ دون أن يأبه له أحد حتى جاء هوجو جيمسباك , وعاد لاستعماله ليلقى قبولا واسعا , وفى اللغة العربية يستخدمون مصطلح الخيال العلمى للإشارة للمصطلحين معا , وهو أمر يخلو من الدقة .

ومبتدع هذا النوع الأدبى فى العصر الحديث-كما سبق الذكر- هو الفرنسى

جولز فيرن ت١٩٠٥, الذى نشر عمله المشهور "خمسة اسابيع فى بالون" عام ١٨٥١ ". وروايات فيرن روايات تعليمية كما سبق وأوضحنا, وتقدم ما استقر من العلم للشباب , وكانت هذه الروايات موجهة لمن هم دون العشرين , الذين بالفعل أقبلوا على قراءتها إقبالا عظيما , ففى رحلة للفضاء يشرح بدقة ما استقر فى عصره من علم حول كيفية توفير الأكسيجين فى المركبة الفضائية , ثم كيفية التخلص من ثانى إكسيد الكربون , وهذا على سبيل المثال, وبسرعة يظهر الفرنسى الآخر بول ديفوا حيث يمزج العلم بالسحر, ويضعف تدريجيا الحافز التعليمى , ليظهر أربعة أسماء هامة :" جوستاف لاروج" , وهو يستخدم العلم لخلق جو من الغموض , ويغلب على أسلوبه انطباعية تنحرف أحيانا نحو التحليق الميتافيزيقى , ثم" البرت روبيدا" , وهو ذو نزعة ساخرة هجائية يقدم العلم فى عدائية ضد آثاره السلبية, وكأسلوب لعرض أحوال المجتمع ,لكن يحمد له تصوراته المستقبلية , فهو يقدم صورة باريس فى الخمسينات أى بعد أكثر من نصف قرن , معتمدا على مصطلحات العامة عندما يعالجون قضية علمية , كما وظف المفارقة اللفظية لمساعدة القارىء على تصور عالم لم يوجد بعد من مثل التنقل بالطائرات, فأبطاله يقومون برحلة طويلة جدا للتسلية وتناول غداء صغير, الأمر الذى يستثير قارىء عصره وربما يستثيرنا اليوم ,لكنها وسيلة لتقديم عصر آتٍ سوف يصبح الانتقال فيه سهلا بصرف النظر عن طول المسافات, وأوصافه ساخرة فتلك الفتاة مثلا يتيمة وشقراء, وفقيرة وفاخرة الملابس. وفى ظل الجو الساخررغم صدق معظم رؤاه للمستقبل نفتقد الموضوعية فى أعماله , وهو أمر يعاكسه فى مقابلة أسلوب "جون ويندهام" فى رواياته الهادفة للنقد الاجتماعى مع توجيه علمى للسرد , لكن بين الأربعة تظهر شخصية مثيرة للاهتمام والتقدير , وهى شخصية الفرنسى "روسنى اينيه" الذى يقدم العلم كاستعراض, وعامل وسيط (catalyst) لصنع جو من الغرابة وتطوير الرواية , وتخلى تماما عن الهدف التعليمى الذى ظل يطل من أعمال كل الروائيين السابق ذكرهم , وقد تخلى عن أسلوب المحاكاة , وتعددت أبعاد العمل الروائى , وبرز عنصر التشويق بطريقة تدفع القارىء للتوقع , وقد تخلى عن أسلوب اعتماد الرواية على موضوع معين مثل رحلة للفضاء , متحولا نحو خلق سياق سردى , كما تخلى عن تعقيل الخيال فى تحقيق الهدف التعليمى إلى تخييل العلم , ليصير الخيال هو السيد والعلم مجرد أداة, لكن أعماله لم تخلُ من رسالة واضحة هى دفع المجتمع نحو قبول العلم وضرورة استخدامه لتحقيق حياة أفضل , وإذا صح التعبير قامت رواياته بتطبيع العلاقات بين العلم والمجتمع .

(٣)

بعد محاولة هوجو جيمسباك تتسع آفاق روايات التخييل العلمى , ويصدر جون دبليو كامبل مجلة استوندينق Astounding science fiction فى الثلاثينيات من القرن الماضى لتدخل رواية التخييل العلمى فى عصرها الذهبى فى الفترة ما بين ١٩٣٨ و ١٩٥٠, حيث تصدر – على سبيل المثال ١٥ مجلة للتخييل العلمى فى الولايات المتحدة فى سنة واحدة , وينتقل ثقل تلك الروايات إلى هناك , ويحدث إقبال قوى على قراءتها .

وهكذا أصبحت تلك الروايات نوعا أدبيا مكينا أمكن كما يقولون , ويتضمن تحت أنواع متعددة , منها الروايات "الهارد أو روايات الفضاء", وقد بدأت تعليمية على يد فيرن , ثم تطورت لتسقط الحاجز بين العلم والفانتازيا بل والاتجاه البوليسى والطلسمائى فى الرواية , ومن أطرف تحت الأنواع تلك روايات "التاريخ البديل" , التى تتخيل مسارا مختلفا للتاريخ, مثل إحدى الروايات الإسبانية التى تخيلت هزيمة فرانكو فى الحرب الأهلية وانتصار الجمهوريين ,وبهذا المستقبل فيها واقع بديل لحاضر إسبانيا بعد رحيل فرانكو , أى عند صدور الرواية. ومن تلك الأنواع التحتية روايات "السيبربنك" وتدور حول أفراد مستوحشين , فى مجتمع متدهور تسوده السلبية رغم التقدم العلمى الهائل , دون أن يتقدم أحد لوقف التدهور الاجتماعى , ويقابلها روايات "مابعد السيبربنك", حيث تقدم نفس الصورة مع وجود أفراد ناشطين فى النضال ضد التدهور, لتحسين حال المجتمع وتجنيد التكنولوجيا لخدمته , ومن هذه التنويعة الثرية تتميز روايات انجليزية تشبه روايات التاريخ البديل تسمى روايات "ستيمبنك" , وهى عدة أعمال أعادت تشكيل العصر الفيكتورى باستخدام التكنولوجيا الذكية , دون التخلى عن استخدامات الفحم والبخار .

أما موضوعات الروايات السابقة , فلا حصر لها , وأهمها استطلاع الفضاء والسيطرة عليه , بجانب غزو الأرض بمخلوقات فضائية , تفتح الباب للخيال ليصور تكنولوجيا لديهم متقدمة عما لدينا من تكنولوجيا,وليصور الحياة خارج الأرض , ويقترب من تلك الرحلات نوع آخر لرحلات فى الزمن القادم او الراحل , ومن المواضيع المتواترة الاستنساخ ومحاولات الاحتكار الجينى , وروايات تتحقق فيها النبوءات الدينية , أو نبوءات حول مستقبل يوتوبى أو معاكس لليوتوبيا , أيضا من الموضوعات التى تتراوح بين الكوميدية والمأساوية موضوع

المجتمعات التى تحكمها أدوات التكنولوجيا من كمبيوترات وروبوتات , أو تحول سكان الأرض إلى مجتمع واحد يترابط ترابط شبكات الكمبيوتر والانترنت , عموما أبرز الموضوعات تدور كلها حول المستقبل ودور العلم فيه بعد تحقق مكتشفات ومخترعات هائلة ومذهلة تقف عند حدود الخيال اللامحدودة.

خاتمة

ومن الضرورى فى نهاية هذا الاستعراض السريع للنوع الأدبى "التخييل العلمى" المشهور بيننا تحت اسم الخيال العلمى أن نذكر بعض مقولات للكاتب الأرجنتينى المرموق كارنييلو تمس موضوعنا بقوة , وتشبه إحدى نبوءات التخييل العلمى " الأدب التقليدى , أراد أو لم يرد سوف يقع – ولاعلاج لذلك – بين أحضان التخييل العلمى , لأنه خلال وقت قصير لن يمكن لكاتب الهروب من السيبرنيطيقا , حيث نعيش ونخلق فننا , أيضا مستقبل التخييل العلمى هو استطلاع سوسيولوجى لصورة المجتمع , فى ظل سيطرة التكنولوجيا على المجتمعات ,.....وأخيرا التخييل العلمى إجابة أدبية على التغيرات العلمية , وهى إجابة يمكن أن تستوعب السُّلم الكامل للتجربة الإنسانية , ومن المثير الآن أن معظم الروائيين والكتاب من العلماء, مما يدفعهم دفعا نحو استخدام العلم للتعبير الأدبى والثقافى .